

## بسم الله الرحمن الرحيم

### فاطمة رضي الله عنها... بين دموع الفراق وبشائر اللقاء

قضت فاطمة حياتها كلها، وهي تحت أنظار أبيها، كانت قريبةً من أبيها أشد القرب، لم تغب عن لمحاته إلا ساعات خروجها من الدار، وقد كانت شديدة التعلق به والاهتمام، حتى كُنيت: بأب أبيها، من شدة تعلق السيدة فاطمة بسيدنا رسول الله كُنيت أم أبيها، أي كأنها أم له من شدة محبتها، وتعلقها، وحرصها، وخدمتها، كان صلى الله عليه وسلم شديد التعلق بها أيضاً. حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام لما زوجها علياً، أسكنها بيتاً ملاصقاً لحجراته الملاصقة لمسجده، وكان عليه الصلاة والسلام إذا عاد من غزواته، أو من سفره، ابتدأ ببيت ابنته فاطمة، ثم يطوف بعدها على بيوت نسائه. ((كان عليه الصلاة والسلام، إذا قدم من غزوٍ، أو سفرٍ، بدأ بالمسجد، فصلّى فيه ركعتين، ثم يأتي فاطمة، ثم يأتي أزواجه))، وهذه السنة، تكريم البنت من السنة، فالحقيقة تكريم البنت يقوي مركزها عند زوجها.

وقد أدرك عليه الصلاة والسلام أنه على وشك مغادرة الدنيا، لذلك راح يمهد للسيدة فاطمة بإخبارها، بأن أجله قد اقترب، لئلا تتفاجأ بالمصاب الذي لا تحتمله، أراد أن يبلغها. وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾، أي أنك لا بد أن تموت، هذه سنة الله في كل خلقه، والآية الثانية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَقْلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾. فمن شدة محبة الصحابة الكرام للنبي عليه الصلاة والسلام، ومن شدة تعلق السيدة فاطمة بأبيها، هذه الآيات تقرأها، ولكن لم يخطر على بالها، أنه سيموت، لذلك خشي النبي عليه الصلاة والسلام وقع المصاب الأليم على نفسها، فأخذ يبسر لها ببعض الشيء عن رحيله من هذه الدنيا إلى عالم الآخرة، وأن ذلك قدر الله عز وجل.

حينما ألمت وعةٌ شديدة برسول الله صلى الله عليه وسلم في ليالٍ بعيّن من صفر في السنة الحادية عشرة للهجرة، ظن آل بيته والمسلمون، أنها وعةٌ طارئة، لا تلبث أن تزول، دون أن يفكر أحدٌ أنه مرض الموت، ((كُنْ أَرْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَهُ لَمْ يُغَادِرْ مِنْهُنَّ وَاحِدَةً، فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ، تَمْشِي مَا تُحْطِي مَشِيئُهَا مِنْ مَشِيئَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئاً، - أشبه إنسان برسول الله فاطمة - فَلَمَّا رَأَاهَا رَحَبَ بِهَا، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِابْنَتِي، ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ سَارَهَا، هَمَسَ فِي أذْنِهَا، فَبَكَتْ بُكَاءً شَدِيدًا، فَلَمَّا رَأَى جَزَعَهَا، سَارَهَا الثَّانِيَةَ فَضَحِكَتْ، فَقُلْتُ لَهَا: خَصَّكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَيْنِ نِسَائِهِ بِالسِّرَارِ، ثُمَّ أَنْتِ تَبْكِينَ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلْتُهَا: مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَتْ: مَا كُنْتُ أَفْشِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِرَّهُ، قَالَتْ: فَلَمَّا تُوَفِّي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: عَزَمْتُ عَلَيْكَ بِمَا لِي عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ لِمَا حَدَّثْتَنِي مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: أَمَّا الْآنَ فَعَزَمْ، أَمَّا حِينَ سَارَنِي فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، فَأَخْبَرَنِي أَنَّ جَبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ - أي يتلو أمامه القرآن مرة - وَإِنَّهُ عَارِضُهُ الْآنَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنِّي لَا

أَرَى الْأَجَلَ إِلَّا قَدْ أَقْتَرَبَ - استتبط النبي عليه الصلاة والسلام أنها السنة الأخيرة في حياته - فَأَنْبَى اللَّهَ وَاضْبِرِي، فَإِنَّهُ نِعْمَ السَّلْفُ أَنَا لَكَ، قَالَتْ: فَبَكَيْتُ بُكَائِي الَّذِي رَأَيْتِ، فَلَمَّا رَأَى جَزْعِي، سَارَنِي الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: يَا فاطمة، أَمَا تَرْضِي أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، قَالَتْ: فَضَحِكْتُ ضَحِكِي الَّذِي رَأَيْتِ))، هكذا عالج النبي عليه الصلاة والسلام وقع المصيبة على ابنته فاطمة قبل حصولها، رأفة منه عليها ورحمة. كتعليق: أي إنسان تخبره أنك سوف تموت بعدي سريعاً يضحك؟! مستحيل، لماذا ضحكت؟ لثقتها بما عند الله من إكرام لها، الإنسان حينما ينقل اهتماماته إلى الدار الآخرة تسعده الدنيا، حينما يقدم الأعمال الصالحة تلو الأعمال، أسعد شيء له أن يلقى الله عز وجل، لذلك المقياس دقيق، ربنا عز وجل خاطب اليهود: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* وَلَا يَمْتَنُونَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ﴾.

ولقد بقيت فاطمة، ترقب أباهما على تخوف، حتى إذا رأته بعد أيامٍ قد تحامل على نفسه، يدور على نسائه أمهات المؤمنين كسابق عهده، راودها الأمل بشفائه ولكنه لم يصل إلى بيت ميمونة أم المؤمنين، حتى اشتد عليه وجعه، فأقام عندها وقتاً، ثم دعا زوجاته، يطلب إليهن ويستأذنهن في أن يمرض في بيت أم المؤمنين عائشة، وكانت كل واحدة تأمل أن يكون مرضه في بيتها، تشريفاً لها. وكانت فاطمة كثيراً ما تتردد على بيت عائشة، تقوم إلى جانب أبيها الذي أثقله المرض، تخدمه، وتسهر عليه مع عائشة، تشكو بثها وحرزها إلى الله تعالى، وتتجمل بالصبر على قضاء الله تعالى وقدره، ولسانها يلهج إلى الله سبحانه بالدعاء، أن يخفف عن رسوله آلام وجعه. وفي فترات سكون الألم، كان عليه الصلاة والسلام، يخرج إلى المسجد، فيصلي بالناس، وفي يوم الجمعة، خرج عاصباً رأسه، حتى جلس على المنبر، ثم كان أول ما تكلم به، أنه صلى على أصحاب أحد، أي دعا لهم، واستغفر لهم، وأكثر من الصلاة عليهم، ثم قال: ((إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، قَدْ خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَ اللَّهِ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ. فَهَمُ الصَّدِيقُ أَنَّهُ يَعْنِي نَفْسَهُ، فَبَكَى، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَلْ نَفْدِيكَ بِأَرْوَاحِنَا، وَأَوْلَادِنَا وَأَنْفُسِنَا، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: عَلَى رِسْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ)).

كما خرج صلى الله عليه وسلم إلى بقيع الغرقد قبل اشتداد وجعه، يدعو لهم، ويستغفر لهم. عَنْ أَبِي مُؤَيْبَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، فَقَالَ: يَا أَبَا مُؤَيْبَةَ، إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ، فَاذْطَلِقْ مَعِي، فَاذْطَلَقْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَقَابِرِ، لِيَهِنَ لَكُمْ مَا أَصَبَحْتُمْ فِيهِ مِمَّا أَصَبَحَ فِيهِ النَّاسُ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا نَجَاكُمْ اللَّهُ مِنْهُ، أَقْبَلْتُ الْفِتْنُ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يَتَّبِعُ أَوْلَهَا آخِرَهَا، الْآخِرَةُ شَرُّ مِنَ الْأُولَى، قَالَ: ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ، فَقَالَ: يَا أَبَا مُؤَيْبَةَ، إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا، وَالْخُلْدِ فِيهَا، ثُمَّ الْجَنَّةِ، وَخَيْرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَالْجَنَّةِ، قَالَ، قُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي، فَخُذْ مَفَاتِيحَ الدُّنْيَا، وَالْخُلْدِ فِيهَا، ثُمَّ الْجَنَّةِ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا أَبَا مُؤَيْبَةَ، لَقَدْ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَالْجَنَّةَ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ، ثُمَّ انصَرَفَ، فَبَدِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَجَعِهِ الَّذِي قَضَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ حِينَ أَصْبَحَ)).

عن أنس بن مالك: ((أنه لما كان يوم الاثنين الذي قبض الله تعالى فيه رسوله صلى الله عليه وسلم، خرج إلى الناس، وهم يصلون الصبح، فرفع الستر، وفتح الباب، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام على باب عائشة، فكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، حينما رأوه فرحاً به، فتنبسم النبي صلى الله عليه وسلم سروراً، لما رأى من هياتهم في صلاتهم، وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن هيئةً منه تلك الساعة، ثم رجع، وانصرف الناس، وهم يرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أفرق، -أي برئ من وجعه، فرحوا الناس، وقد خاطبهم النبي عليه الصلاة والسلام فقال: أيها الناس سعرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وإني والله ما تمسكون علي بشيء، إني لم أحل إلا ما حل القرآن، ولم أحرم إلا ما حرم القرآن)) أي لا يوجد علي مأخذ، ما أحللت إلا ما أحل الله، وما حرمت إلا ما حرم الله، لكن المعنى المخالف، الذي يحل ما حرم الله له عذاب أليم، أو الذي يحرم ما أحل الله .

قالت عائشة: ((رجع إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم، حين دخل من المسجد، فاضطجع في حجري، ووجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقل في حجري، فذهبت أنظر في وجهه، فإذا بصره قد شخّص، وهو يقول: اللهم الرفيق الأعلى من الجنة، فقلت: خيّرت واخترت، والذي بعثك بالحق. قالت: وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما ثقل النبي صلى الله عليه وسلم، كانت فاطمة رضي الله عنها حاضرةً عنده، ترى ما نزل به من أمر الله تعالى الذي لا مردّ له، فتأخذها العبرات حزناً ولوعةً على أبيها، وهي تراه يدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه، ويقول: لا إله إلا الله، إنّ للموت سكّرات)).

قال أنس: ((لَمَّا ثَقَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ: وَكَرَبَ أَبَاهُ، فَقَالَ لَهَا: لَيْسَ عَلَيَّ أَبِيكَ كَرَبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ، فَلَمَّا مَاتَ، قَالَتْ: يَا أَبَتَاهُ، أَجَابَ رَبًّا دَعَا، يَا أَبَتَاهُ، مَنْ جَنَّةُ الْفَرْدَوْسِ مَأْوَاهُ، يَا أَبَتَاهُ، إِلَى جَبْرِيلَ نَنَعَاهُ، فَلَمَّا دُفِنَ، قَالَتْ فَاطِمَةُ: يَا أَنَسُ، أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْتُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التُّرَابَ؟)).

قبل وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، أنبأ النبي السيدة فاطمة، أنها أول أهله لحوقاً به، فتوفيت فاطمة الزهراء رضي الله عنها بعد النبي صلى الله عليه وسلم بخمسة أشهرٍ أو نحوها، تقول أم رافع: مرضت فاطمة الزهراء، فلما كان اليوم الذي توفيت فيه، قالت لي: يا أم اسكبي لي غسلًا، فاغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل، ثم لبست ثياباً لها جدد، ثم قالت: اجعلي فراشي وسط البيت، فاضطجعت عليه، واستقبلت القبلة، وقالت: يا أم، إني مقبوضة الساعة، وقد اغتسلت، فلا يكشفن لي أحدٌ كفنًا، فماتت رضي الله عنها، فجاء علي بن أبي طالب، فأخبرته فاحتملها، ودفنها بغسلها هي، صلى عليها هو والعباس رضي الله عنهم جميعاً، وتوفيت رضي الله عنها ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان سنة إحدى عشر من الهجرة .